الأهرام

المصدر: الشرق الاوسط

التاريخ : ١٤ مايو ٢٠٠٤

# تشابه الخصوم حول فضيحة «أبو غريب»

كلنا يعلم الآن ما خلفته فضيحة سجن أبو غريب من آثار في الولايات المتحدة. والسؤال الذي يجب طرحه هو: ماذا ستترك الفضيحة من آثار في زوايا الشرق الأوسط الأربع، حيث يدور أكثر الكلام في ما عرف باسم «صدام الحضارات»؟

لا يمكن الحصول على جواب لهذا السؤال عن طريق سيل التعليقات التي قدمها الإعلام العربي خلال الأيام الأخيرة، والذي يهدف أغلبه إلى خدمة قائليه أكثر من أي شيء آخر. فالناس الذين لم يرفعوا يوما صوتهم ضد التعذيب المنهجي ضد السجناء على يد حكوماتهم، قد منحوا مساحة واسعة ومفتوحة لمهاجمة الولايات المتحدة، بسبب الفظائع المزعومة التي ارتكبت على يد الجنود الأميركيين في ذلك السجن العراقي الرهيب.

اللافت في هذه الانتقادات، هو أن مطلقيها يطبقون على الولايات المتحدة، وبدرجة أقل على بريطانيا، مقاييس لا ترد حتى في الخيال حين تكون حكوماتهم موضوعا للمقارنة. وهم بذلك يعترفون بشكل مبطن بالتفوق الأخلاقي للنظام الديمقراطي.

يرى الكثير من المسلمين المخلصين في فضيحة أبو غريب رمزا لفشل جميع الأنظمة التي أقصت الدين عن السياسة.

كان أبو غريب مكانا لممارسة سوء المعاملة والتعذيب، وظل يكنّى بـ«قصر النهاية» تحت أنظمة عراقية متعاقبة، كانت قد رفضت الدين باسم آيديولوجيات علمانية، مثل القومية والاشتراكية. والآن أثبت سجن أبو غريب أن «الديمقراطية الكافرة» ليست أفضل من سابقاتها. هذا الشعور الواسع الانتشار، يجعل مهمة الديمقراطيين في البلدان المسلمة أكثر صعوبة، في وقت أصبح العراق فيه ساحة القتال الرئيسية لتيارات ايديولوجية متنافسة في الشرق الأوسط.

يمكن للضرر الناجم عن فضيحة أبو غريب، ان يتجاوز، على المديين المتوسط والبعيد، مجرد تغذية الغضب الشديد، الذي يحمله المعادون للولايات المتحدة في المنطقة، غير ان الكثير من ابناء الشرق الاوسط يمكن ان يلحظوا ايضا، سرعة رد الفعل الأميركي والبريطاني في التعامل مع الفضيحة.

والحقيقة أن محاكمة أول سبعة متورطين في الاعتداءات ضد بعض سجناء أبو غريب، هي للكثير من الناس، علامة على أن الديمقراطيات قادرة، وغالبا ما تنجح، في تصحيح أخطائها، لذا فمن الضروري أن تكون المحاكمة علنية ومفتوحة أمام الجمهور، خصوصا للإعلام العربي.

> يجب عدم إضاعة فرصة استقلال العراق بالركض خلف رأس رامسفيلد

كل مواجهة أو إذا شئت سميها «تصادما»، بين نظامين متنافسين، تنتج تأثيرا محفزا على المحاكاة. حيث يحاكي الخصوم جوانب من خصائص بعضهم البعض.

في العالم القديم، قلد الرومان النظام الملكي عند خصومهم الفرس. بالمقابل حاكى الفرس خصومهم الرومان عن طريق إنشائهم، وللمرة الأولى، جيشا متفرغا. وخلال الحرب الباردة تبنى السوفيات الطرق العلمية والتقنية من خصومهم الرأسماليين، بينما استعار ماكارثي مطاردة الشيوعيين داخل الولايات المتحدة، خلال الخمسينات، من الطريقة الستالينية المستندة إلى مبدأ السيطرة الفكرية. وحاول السوفيات أن يقلدوا النظام الديمقراطي عن طريق إنشاء برلمانات شكلية وتنظيم انتخابات دورية.

من المستحيل التصارع مع خصم من دون أن يختلط عرق جسدك بعرق جسده. وما من أحد يعرف عدد الجنود الأميركيين والبريطانيين المتورطين في الانتهاكات المفترضة في العراق، فحتى الآن، يواجه سبعة جنود أميركيين التحقيقات متهمين بانتهاكات ضد ما يقرب من 20 من نزلاء السجن. ويجب أن

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

أمير طاهري

يضاف اليهم أربعة جنود بريطانيين متهمين بإساءة معاملة تسعة عراقيين.

من المهم التحقق مما اذا كان هذا هو كل ما بلغته الانتهاكات، فإذا كان الأمر يتعلق بالتعرض لعشرات السجناء من أصل سبعة آلاف، فيمكن النظر الى القضية بالكامل باعتبارها استثناء يخص عددا قليلا من الأشخاص، ممن كان ينبغي عدم وضعهم في موقع المسؤولية عن السجناء. أما اذا كان عدد من تعرضوا لإساءة المعاملة أكبر، وكان جزءا من سياسة مقصودة، فإننا نتعامل حينئذ، مع قضية كلاسيكية من قضايا الاذلال التقليدي.

وفي هذه الحالة، فان الاميركيين والبريطانيين سوف يبدون قلقا جديا، ليس فقط تجاه ما يمكن أن يحدث في العراق، بل حول التأثير البعيد الأمد للحرب ضد الارهاب في النظام الديمقراطي نفسه، وحيث يجب عدم اعطاء صدام القابع في سجنه وبن لادن القابع في كهفه فرصة الزعم بأن خصومهما ليسوا أفضل منهما على اية حال.

كما ان على الولايات المتحدة وبريطانيا، أن تقنعا اللجنة الدولية للصليب الأحمر بالسماح بنشر تقاريرها بصورة علنية. وسيكون ذلك سابقة مفيدة، إذ يتيح اخراج أجزاء من تقاريرها السرية، على الأقل، حول الانتهاكات التي تقترفها أنظمة عربية بحق سجنائها، الى العلن.

ان الطريقة التي تعاملت بها الولايات المتحدة وبريطانيا مع الأفعال السيئة التي قام بها بعض جنودهما، يمكن أن تصبح درسا موضوعيا في مزايا حكم القانون في منطقة الحكومات فيها هي أول من ينتهك القوانين التي اقرتها هي نفسها. ويمكن أن تتحول قصة ابو غريب الى درس في الصراحة والتحلي بالمسؤولية، وبالديمقراطية لشعوب الشرق الأوسط.

ان الكتاب الذين يوجهون نيرانهم الآن الى الولايات المتحدة، فانهم قد يفكرون يوما ما، بأنه يتعين عليهم ان يتساءلوا عن طريقة أنظمتهم في تعذيب السجناء كجزء من سياسة مألوفة.

لهذا، من المهم أن ينصب التركيز على جوهر القضية، بدلا من محاولة تسجيل النقاط الحزبية في سنة انتخابية. فالموضوع ليس تعليق فروة رأس رامسفيلد على الجدار، رغم أن ذلك ربما يرضي السناتور إدوارد كينيدي والقادة البعثيين القابعين في سجون العراق، الا ان التركيز على التنكيل برامسفيلد ربما يكون نوعا من الانحراف الذي يسبب مزيدا من الفوضى والتشويش في المنطقة.

كما أن الفضيحة يجب ألا تستغل لتشويه كل المشروع العراقي. فإذا نجحت التجربة العراقية، أي إذا سارت البلاد في طريق الديمقراطية تحت قيادة حكومة تأتي بها انتخابات حرة، تجرى العام المقبل، فإن فضيحة أبو غريب ستتلاشى في غياهب التاريخ، باعتبارها حدثا ضئيل الأهمية، رغم ما انطوت عليه من قبح مثير للاشمئزاز.

وفي الجانب الآخر، إذا سمح للعراق بالانزلاق إلى الفوضى أو الوقوع في أحضان طاغية جديد، فإن العالم سيواجه أهوالا لن تكون أحداث أبو غريب بالقياس إليها سوى حفل في حديقة عامة. من المهم إذن، ألا تغيب عنا الصورة الكاملة. فرامسفيلد يمكن أن يذهب في أي وقت. كما أن جورج دبليو بوش يمكن أن يسقط في الانتخابات. لكن يجب ألا ندع الفرصة النادرة المتاحة لتحويل العراق إلى بلد ديمقراطي مستقر تفلت من بين ايدينا.

ولنقم كل المحاكمات التي نريد لجرائم أبو غريب، ولكن دعونا لا ننسى 30 يونيو (حزيران)، يوم تسليم السلطة إلى حكومة عراقية مؤقتة، كما دعونا نذكر يناير (كانون الثاني) 2005، وهو يوم الانتخابات الحرة الأولى في تاريخ تلك البلاد.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية